"كنارى"
"قصص تحاور الواقع وتكشف أقنعته"
بقلم أبو المعاطى أبو النجا

هذه هى المجموعة القصصية الثالثة للدكتور أحمد الخميسى الذى توزعت جهوده الأدبية بين القصة القصيرة والترجمة والدراسات السياسية والكتابة الصحفية في القضايا العامة وفي النقد الأدبي منذ العام 1964 وحتى الآن.

المجموعة المعنونة "كنارى" ، والصادرة في سلسلة "كتاب اليوم" تضم عشرين قصة تقع في 129 صفحة من القطع المتوسط مما يشير إلى أن قصص المجموعة تميل إلى الإيجاز والتركيز مستجيبة بذلك إلى واحدة من أهم سمات القصة القصيرة، ومعظم القصص مقدمة من خلال الضمير الثالث العليم بكل شئ، الذى يوحي استخدامه بميل الكاتب إلى الحياد والموضوعية في رؤيته وفي تعامله مع الشخصيات والأحداث!

وقد رأيت أنه من المناسب في حدود هذا المقال أن أختار قصتين فقط من قصص هذه المجموعة للعرض والتحليل وللكشف عن نوعية القضايا والشخصيات التي يهتم الكاتب بالتوقف عندها، وعن أسلوبه في بناء القصة وتطور الأحداث والمواقف والشخصيات!

القصة الأولى بعنوان "باب مغلق" ومن خلال الضمير الثالث نعرف أن الأستاذ موريس المحاسب بأحد البنوك يسكن مع زوجته مدام جانيت المدرسة، في عمارة بحي الظاهر وأن الاثنين تجاوزا سن الإنجاب دون أن ينجبا، لكنهما قانعان بحياتهما الهادئة الرتيبة، في العمارة محمود البواب الذى جاء من أسوان منذ زمن، وعاش أسفل السلالم مع أبنته الصغيرة هدى التي كانت تشترى للسكان، وبخاصة لمدام جانيت الحاجات اليومية من المحال القريبة من العمارة، من الطبيعي أن نتصور أن تكون لهدى مكانة مختلفة لدى أسرة موريس المحرومة من الأطفال، وهذا ما يخبرنا به الضمير الثالث دون أطناب أو مبالغة، " في بعض الأوقات التى كانت تأتى فيها هدى بشاى أو خبز كانت مدام جانيت تقول لها: " أقعدي يا هدى استريحى وأنت طالعة نازله طول النهار" فتجلس هدى على حافة "الفوتيه" كأنها تخشى أن تجلس عليه كله، تبحلق في التليفزيون بصمت فإذا قدمت لها مدام جانيت قطعة كيك صغيرة قضمت فيها دون أن ترفع بصرها عن الشاشة، تظل جالسة هكذا إلى أن تسمع صوت والدها ينادى عليها لأن أحد السكان في الطابق الثالث أو الرابع يطلب شيئا حينئذ تثب وتهرول وهى تغمغم بكلمات شكر غير مفهومه!

بمثل هذا الأسلوب النابض والمحايد ، يصور الكاتب حال موريس وجانيت بعد خروج هدى من الشقة:

" تغادر هدى الشقة فينسل لون ما من الجو، ويحل شعور خفيف بالوحدة والأسف في الصالة، وعلى كسوة المقاعد، ويتفادى موريس وجانيت أن تتلاقي نظراتهما".

بمثل هذا المنحي من الإيجاز الموحى يخبرنا الضمير الثالث "الراوي" أن والد هدى يتردد كل يوم أربعاء على مستشفي القصر العيني لغسيل كليته، وحتى لا يكون موته بعد قليل مفاجئا لنا وإذا كان سكان العمارة وبعض الجيران قد تعاونوا جميعا في عمل اللازم بشأن موت البواب ودفنه بعد أن تأكد لهم أنه لا أقارب أو معارف له غيرهم، فإن أحدا في زحمة

الانشغال بهذه الأمور لم ينتبه لمصير البنت هدى بعد موت أبيها أكثر من الأستاذ موريس وزوجته جانيت!

وبدأ كأن علاقتهما السابقة بهدى كانت هى التدبير ألالاهى الحانى والصامت لكي تجد هدى الملاذ بعد الوفاة المفاجئة لوالدها، ولكى تجد جانيت وموريس أبنة لهما بعد طول يأس من الإنجاب!

حين مضى على وجود هدى في بيت الأستاذ موريس قرابة شهر كامل قالت جانيت لموريس:

- إيه رأيك لو أدخلنا هدى مدرسة قريبة؟!

في مساء ذلك اليوم يخبرنا الضمير الثالث العليم بكل شئ أن الأستاذ موريس فوجئ وهو يشترى دواء من الصيدلية المجاورة بأن صاحبها الدكتور/ مصطفي يسأله عن أخبار البنت هدى؟ تم يضيف: مش الحمد الله بخير؟!

لم يتوقف موريس طويلا عند السؤال وأجاب: الحمد لله ماشى الحال!

ولكن حين يتكرر السؤال من الحاج عصفور صاحب محل العطارة ثم يتقافز من محل المكوجي إلى صاحب المخبز، ومن دكان العصير إلى المقهى، ومن بائعة اللبن إلى داخل البيوت فإنه لا يبقى مجرد سؤال بل يصنع إجاباته التى لا تصل كاملة أو واضحة إلى الأستاذ / موريس، فالناس يقولون: أن موريس أخذ البنت الصغيرة عنده لكى يربيها على طريقتهم ويخليها نصرانية!

ولا يجد الأستاذ موريس مفراً إلا بأن يلجأ إلى أخلص أصدقائه في البنك "لطفي" يلتمس عنده النصيحة الخالصة !

فيقول له أخلص الأصدقاء بصريح العبارة:

- يجب أن تتخلص من هدى بأية طريقة، بقاؤها عندك يمكن أن يعمل لك مشكلة فى البيت وفي الشارع ، وفي الحي بأكمله.
- كيف أتخلص منها؟! البنت طفلة ! ومالهاش حد البنت بتحبنا وكما إحنا....

قاطعة لطفي:

- سيبك من حكاية الحب دى، المسألة أكبر من كده ياموريس،

موريس لم ير الشيطان مرة واحدة في حياته، ولكنه وهو يستمع إلى مصارحة صديقة لطفي كان يشعر كأنه هو الشيطان نفسه أو المتحدث بلسانه!

كيف يتحول ما كان يعتقد أنه تدبير إلا هى من أجل هدى ومن أجل موريس وجانيت إلى ما هو عليه الآن ؟! إلى هذا المسخ الشيطاني؟!

هذا هو السؤال الذى تخترق به القصة عقل القارئ وقلبه وضميره ليبحث له عن جواب ، ولهدى عن مأوى بعد أن أغلق الأستاذ موريس بابه أمام هدى ووقف خلفه يرد على توسلاتها قائلا:

- ما أقدرش يابنتى، والعدرا ما أقدر، والنبي والعدرا ما أقدر!؟

* * * *

القصة الثانية بعنوان "نظام جديد" مقدمة أيضا من خلال الضمير الثالث وهو هنا كما في كل قصص المجموعة يستخدم ذلك الأسلوب النابض والمحايد والشديد الإيجاز فنعرف منه بأقل قدر من الكلمات، ومن خلال الحوار في معظم أجزاء القصة أن الدكتور فخرى الفيومى الأستاذ الجامعي المرموق قد استدعي إلى المباحث العامة عقب اجتماع حاشد في الجامعة شارك فيه الطلاب جرفته خلاله الحماسة - وهو المشهود له بالمكانة العلمية الكبيرة وبالتعقل والحكمة والنزاهة - فقال كلمه ساخنة تجاوز فيها سقف المسموح!

يقول له الضابط الشاب في المباحث:

- يا دكتور آسف جدا نحن مضطرون لاعتقالك! بعد لحظات من الصمت، يبدو أنها تركت عمدا للدكتور لاستيعاب الصدمة أو التفكير في الموقف!

فإن الضابط نفسه هو الذى ينهى الصمت بالدخول في حوار مع الدكتور فخرى يلوح كأنه جزء من سيناريو معد بإتقان يفهم منه الدكتور فخرى أن "تظاما جديدا" قد تم الأخذ به وبدلا من أن يقضي الدكتور فترة اعتقاله المقررة في السجن فإنه سوف يعود إلى بيته، وإلى عمله المعهود ليقضى فترة الاعتقال - دون اعتقال- وهذا نظام مأخوذ به في بعض البلاد - مع الشخصيات المشهود لها بالحكمة والنزاهة، وبدلا من حرمانه من حريته، وحرمان طلبته من علمه فإنه سوف يعود ليمارس حياته كما كان يمارسها ودون أن يشعر أحد بشئ فيما يخص أمر اعتقاله، كان شئ من الهدوء يتسلل إلى وجه الدكتور خلال الحوار الذى فهم منه أشياء كثيرة ومن أهمها أنهم يعرفون عنه أشياء كان يعتقد أنها مما لا يعرفه أحد!

بعد انتهاء فترة الاعتقال يتم استدعاء الدكتور فخرى إلى المباحث العامة ليقول الضابط الشاب الذى حقق معه في المرة الأولى.

شكرا يا دكتور لقد صدر قرار بإنهاء اعتقالك ويمكن أن تعود إلى حريتك كما كنت، لأننا - وكما تأكد لك ولنا - نعتمد على الثقة في حكمتك وأمانتك .

القصة تبث رسالتها الخفية والعميقة- إذا كنت ممن يرون أن أى قصة لابد وأن تحمل رسالة - في تقديم الطريقة التى بدأ الدكتور فخرى يرى بها الحياة والناس، ويتعامل بها مع أسرته وطلابه ، في خلال فترة اعتقاله التى لم يكن يظهر فيها أنه قيد أى اعتقال بأى صورة من الصور ، في الطريقة التى بدأ يلاحظ فيها أن معظم الناس كانوا يوافقون على الشئ ونقيضه ، ويؤيدون موقفا وعكسه ، وكان وهو يدقق في وجوه الناس فلا يلاحظ ما يستدل به على أن الشخص معتقل نظام جديد أو نظام قديم!

أحيانا كان يفلت لسانه فيقول لأحد جلسائه في المقهي على حين فجاه.

- حضرتك نظام جديد؟

فيجيبه الأخر بحيره.

- نظام جديد ماذا تعنى؟

ربما كان أهم ما اكتشفه الدكتور فخرى في تلك المرحلة أنه كان يعيش حرية زائفة في مقابل أمن زائف داخل سجن صنعه لنفسه وعلى مقاسه، وأن الحرية لاتكون أبدا إلا في القدرة على مواجهة الخطر.

الأخ الكريم الأستاذ عاصم عبد الخالق المحترم

تحياتى القلبية، وأخلص التهنئة بعيد الأضحى المبارك راجيا أن يكون المقال المرفق بعنوان : "كنارى" قد وصل في موعد مناسب ، وأن يكون ملائما للنشر في صفحة الرأى مع خالص المودة

من أخيك

أبو المعاطى أبو النجا

2011/11/10